العلم بوصفه خطابا سياسيا

د. عزيزة بدر محمد(*)

الملخص

العلم خطاب سياسي، حيث تنتقل المفاهيم المعرفية الرئيسة الماثلة داخل الحقول المعرفية لتغير الأجندة السياسية، العلم سلسلة من الخطابات السياسية، وذاك أن لغة العلم مخترقة أيديولوجيا، تخترقها أيديولوجيا الهيمنة الماثلة في ممارسات سيكولوجيا الشخصية، وتنمية الشخصية الفردية في المجتمعات الأوروبية وشمال أمريكا.

وبالوسع ها هنا القول أن العلوم السياسية وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع في الدراسات الأكاديمية الحديثة علوم أيديولوجية.

ولنا أن نلفت هنا إلى أن اتفاق الآراء على أن المعرفة «الحقيقية» معرفة غير سياسية في جوهرها، أو حين القول بأن المعرفة السياسية السافرة معرفة «غير حقيقية» يفضي إلى تعتيم الشروط السياسية التي أنتجت في ظلها تلك المعرفة.

وثم مفاهيم كثر أسهمت في دعم أبستمولوجيات المركزية الأوروبية وأيديولوجيات الإمبريالية، ومن بين تلك المفاهيم مفهوم «همجي/ متحضر»، حيث يعرف «الهمجي» غير المتحضر بوصفه كيان أو إنسان في أدنى مراحل الثقافة، وقد ظهر مفهوم الثقافات المتحضرة (أو الأشخاص) في بدايات عام ١٦٠١، ويعني المدنية، أي الانتقال من الحالة البربرية إلى تعلم فنون الحياة وإلى التنوير والارتقاء.

وثم مفاهيم أُخر كمفهوم بدائي، وهمجي، والعالم الثالث، ومتخلف، وغير- غربي، والتدوين الأنثروبولوجي وغيرها كثر، تلك المفاهيم تتخذ الغرب معيارًا، وتشير إلى باقي البشر بوصفهم أدنى، ومنحرفين، وهامشيين.

(*) أستاذ مساعد الفلسفة اليونانية بقسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - مصر.

كلمات مفتاحية: الحداثة - الثنائية - التنوير - الكونية - كارتوجرافيا.

Abstract

Science is a political discourse, where the main cognitive concepts present within the fields of knowledge are transmitted to change the political agenda. Science is a series of political discourses, and that the language of science penetrates ideologically, penetrates the hegemonic ideology present in the practices of personality

psychology, and the development of individual personality in European societies and North America and more here Saying that political science, economics and sociology in modern academic studies are ideological sciences, and we should point out here that the consensus of opinions that «real» knowledge is essentially non-political, or when saying that blatant political knowledge is «unreal» knowledge leads to the obfuscation of the conditions. The politics under which that knowledge was produced.

And then many concepts contributed to supporting the epistemologies of European centralism and the ideologies of imperialism, and among those concepts is the concept of «savage/ civilized», where the uncivilized «savage» is defined as an entity or human being in the lowest stages of culture, and the concept of civilized cultures (or persons) appeared in The beginnings of the year 1601, meaning civilization, that is, the transition from the barbarian state to learning the arts of life and to enlightenment and advancement. Then other concepts such as primitive, barbaric, third world, backward, non-Western, anthropological notation and many others, these concepts take the West as a standard, and refer to the rest of human beings as inferior, deviant, and marginal.

Keywords: Modernity - Dualism - Enlightenment - Universalism - Cartography.

مقدمة

❐ لأننا ذوات مقهورة. ❐ ولأنها أبستمولوجيا استبدادية وحشية.

❐ ولأن العلم خطاب سياسي.....

تـأتي تلك الورقـة تعبيرًا عن معاناة ذاتيـة حقيقية، وذاك أني لا أملك تـرف الانفصال عن الواقع أو التعامي عنه، فماذا عساي أن أفعل؟

كنـت مدفوعة بهذا الهم، وسـألت نفسي.. أانخـرط في أوراق بحثيـة أكاديمية خالصة؟ ولكـن ماذا عن الواقع المأسـاوي المعيش، ومـا قيمة بحوث أكاديمية تتحـرى المعايير البحثية الأكاديمية، وتتعامي عن الواقع المحزن، لتسـقط المعايـير والبحوث الأكاديمية إذا تعامت عن الواقع وتعالت عليه.

وما جدوى الفلسفة إذا لم تسهم في الواقع، في التغيير الاجتماعي..

كنت مدفوعة بهذا الهم.

ذاك الانهمام ليته يغدو التزاما أخلاقيا إنسـانيا لـدى الذوات العارفة، وذلك تجاوزا لفصل الإنساني عن الأكاديمي، فذاك الفصل يدعم سلطة المعرفة.

رفضًا لبحث أكاديمي يدعم سـلطة المعرفة، وطعنًـا في مفاهيم معرفية مجحفة تلف وتوجه الحاضر والواقع المعيش، وتمارس فعلها في الحياة اليومية، بل تسهم في تشكيل أدق تفاصيل الحياة الإنسانية، كانت تلك الورقة.

تعاطفت مع تلك الورقة حد البكاء، فثمة حاجة لحقول معرفية ومقاربات تشـتبك بالواقع اشـتباكا، تسهم في تقويض المفاهيم والثنائيات الكامنة في صلب المشروع الإمبريالي، وتكشف زيف دعاوي المشروع التنويري الغربي.. وكيف لا والعلم خطاب سياسي، حيث تنتقل المفاهيم المعرفية الرئيسة الماثلة داخل الحقول المعرفية لتغير الأجندة السياسية، العلم سلسلة من الخطابات السياسـية، وذاك أن لغة العلم مخترَقة أيديولوجيا، تخترقها أيديولوجيا الهيمنة الماثلة في ممارسـات سيكولوجيا الشخصية، وتنمية الشخصية الفردية في المجتمعات الأوروبية وشمال أمريكا[1].

(1) Helen Longino ,science as social knowledge: values and objectivity in scientific inquiry, Princeton university press, 1990, p. 4.

وبالوسع ها هنا القول أن العلوم السياسية وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع في الدراسات الأكاديمية الحديثة علوم أيديولوجية[١].

ولنا أن نلفت هنا إلى أن اتفاق الآراء على أن المعرفة «الحقيقية» معرفة غير سياسية في جوهرها، أو حين القول بأن المعرفة السياسية السافرة معرفة «غير حقيقية» يفضي إلى تعتيم الشروط السياسية التي أنتجت في ظلها تلك المعرفة[٢].

وثم مفاهيم كثر أسهمت في دعم أبستمولوجيات المركزية الأوروبية وأيديولوجيات الإمبريالية، ومن بين تلك المفاهيم مفهوم «همجي/ متحضر»، حيث يعرف «الهمجي» غير المتحضر بوصفه كيان أو إنسان في أدنى مراحل الثقافة، وقد ظهر مفهوم الثقافات المتحضرة (أو الأشخاص) في بدايات عام ١٦٠١، ويعني المدنية، أي الانتقال من الحالة البربرية إلى تعلم فنون الحياة وإلى التنوير والارتقاء.

وثم مفاهيم أُخر كمفهوم بدائي، وهمجي، والعالم الثالث، ومتخلف، وغير - غربي، والتدوين الأنثروبولوجي وغيرها كثر، تلك المفاهيم تتخذ الغرب معيارا، وتشير إلى باقي البشر بوصفهم أدنى، ومنحرفين، وهامشيين[٣].

ويسعنا ها هنا أن نلفت إلى حقل الاستشراق، فهو ليس نصوصًا كتبت عن الشرق فحسب، أنه وعي جغرافي سياسي مبثوث في النصوص العلمية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية، هو سلسلة من «المصالح» التي تتحقق متكأة على نتائج البحوث العلمية، وإعادة البناء اللغوي القديم والتحليل النفسي ووصف ظواهر الطبيعة.. ليس لتفهم عالم جديد، بل للسيطرة عليه وضمه والتلاعب به، وهو قبل كل شيء «خطاب» يأتي إلى الوجود ويحيا في إطار شتى أنواع السلطة، وعبر السلطة السياسية (مثل المؤسسات الإمبريالية) والسلطة الفكرية (العلوم السائدة) والسلطة الثقافية (المناهج «الصحيحة» المعتمدة للذوق والقيم) والسلطة الأخلاقية (الأفكار الخاصة بما يفعله الغرب ولايستطيع غيرهم أن يفعلوه أو يفهموه)[٤].

---

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني.

(٢) المرجع السابق، ص٥٥.

(3) Bill Ashcroft, Gareth Griffiths and Helen Tiffin, post colonial studies the Key concept, Rutledge 2000, p. 209.

(٤) إدوارد سعيد - الاستشراق، ص ٥٨.

وقـد اتخذ الغرب من أفريقيا دليلا على تفوقه الذاتي الخاص، وذلك بوصفه ثقافة متحضرة، تقف على النقيض من (ظلا م) أفريقيا السوداء البدائية.

ومع بدايات العالم الحديث راح الغرب يؤسـس لذاته ووجوده اسـتنادًا إلى ثنائية همجي/ متحـضر عـلى نحو أكـثر تعقيدًا، حيـث يأتي فهم الـذات الغربيـة للهمجي عـلى النقيض من فهمهـا لذاتها، وهذا يسـتلزم أن تغدو الـذات الغربية هي الفاعلة في العالم السـياسي الواقعي، و إذا كان فرويـد يضـع الأنا بوصفها تتوسـط الأنا العليـا المتحـضرة civilizing super- ego والليبيـدو libido البدائيـة؛ فقد تم توظيف خارطة فرويد تلك في الواقع السـياسي كميتا فور أو مجاز لتلك العلا قة الهيراركية فيما بين أوروبا والآخرين[1].

الذات الغربية المعاصرة ترى أنها توازن شـفيف فيما بين المتحضر والبدائي، وها هنا يبدو الفهم الغربي للذات الغربية، وكذا ذوات الآخرين فهما زائفًا عبر تلك المفاهيم الجدلية.

وعلى الرغم من ذلك تم توظيف ذاك السرد الثقافي في إعادة تشكيل علاقات الغرب - الآخر.

ولنـا أن نلفت هنا إلى أن ثمة شـبكة من المفاهيم أسـهمت في التأسـيس لإبسـتمولوجيات المركزيـة الغربيـة ولأيديولوجيات الإمبريالية، وقد تواشـجت تلك المفاهيـم داخل الخطاب السياسي الإمبريالي، ومن بين تلك المفاهيم مفهوم وخطاب الحداثة، ومفهوم الثنائيات، ومفهوم التنوير، ومفهوم الكونية، ومفهوم وكارتوجرافيا المركز/ الهامش، ومفهوم تاريخ العلم وتأريخ العلم، ونسق جنس/ جنوسة.

وسوف أقارب تلك المفاهيم الواحد تلو الآخر:

- ❐ الحداثة خطاب بلاغي وسردية استعمارية.
- ❐ الثنائية «المنطق الداخلي للهيمنة».
- ❐ التنوير «فصل في تاريخ الاستبداد».
- ❐ الكونية «سردية شوفونية».
- ❐ تاريخ العلم وتأريخ العلم.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p. 26.

❐ نسق جنس/ جنوسة.

❐ خاتمة.

❐ الحداثة خطاب بلاغي وسردية استعمارية.

الخطاب discourse أحد أكثر المفردات شيوعًا في النظرية المعاصرة، حيث يشير الخطاب - في معناه التقليدي - إلى حديث رسمي formal speech، وقد غدا لمفهوم الخطاب معنى تقني technical sense، وذاك حين وظف اللغويون مفهوم الخطاب في الإشارة إلى وحدة متماسكة من الحديث، لا جملة واحدة فحسب.

وكان مفهوم الخطاب قد اشتق من ميشيل فوكوه، الخطاب - فيما يرى فوكوه - متواشج بالمعرفة الاجتماعية، هو نسق من القضايا يسعنا عبره التعرف على العالم، الخطاب يُحضِر العالم، يمنح الوجود للعالم، فالعالم ليس هناك (there) كيما نتحدث عنه، وكذا ليس بالوسع الإشارة إلى العالم بكلمة هنا أو هناك، وعبر الخطاب نفسه يأتى العالم إلى الوجود[1].

ولنا أن نلفت هنا إلى أن الخطاب يدنو من أن يكون نقطة التقاء المتحدثين والمستمعين، القراء والكُتاب، حيث يحقق لهم الفهم الذاتي، ويحدد علاقة كل منهم بالآخر، وكذا يحدد مكانتهم في العالم (بناء الفردية).

الخطاب هو العلامات والممارسات المعقدة التي تُسهم في تنظيم الوجود الاجتماعي، وكذا إعادة الإنتاج الاجتماعي social reproduction.

وعلى هذا، بالوسع النظر إلى الحداثة بوصفها خطابا لا حقبة فحسب، حيث أسهم مفهوم الحداثة في خلق الخطاب الاستعماري، إذ الحداثة مهمة وحاسمة لممارسة القهر والإخضاع والحكم الإمبريالي، ولتهذيب الروح و إبداع الحقيقة.

وكذا يُفترض أن ثمة ديناميكية جوانية ماثلة في الحداثة الأوروبية، تلك الدينامية تمنحها قوة فائقة تمارس عبرها تأثيرا مهيبا على الشعوب غير الأوروبية، إذ في التربة الغربية وحدها ثم ظواهر ثقافية أنتجت علائم التقدم التطوري والصحة الكونية[2].

(1) Ibid ,p.27.

(٢) ليندا لانج، القرابين المحروقة للعقلانية: قراءة نسوية لبناء الشعوب الأصلية في نظرية انريك دوسل عن=

وقد أسهم هذا الخطاب في خلق هوية إنسانية فيما بين أوروبا ومستعمراتها، ولنا أن ننوه هنا إلى أن بدايات الحداثة كانت مصاحبة لبدايات المركزية الغربية والهيمنة الأوروبية على العالم عبر التوسع الإمبريالي. فقد انبثقت الحداثة في الوقت الذي باتت الشعوب الأوروبية تدرك علاقات الهيمنة تجاه العالم غير الأوروبي، ومن ثم راحت تبسط الحكم الاستعماري عبر الكشوف الجغرافية والاستعمار.

أسست أوروبا لذاتها بوصفها «حديثة»، وأسست للذوات غير الأوروبية بوصفها ذواتا تقليدية، وساكنة، وبدائية، وغدت خدعة الأنماط الأوروبية المتعالقة بالتغير التاريخي (النموذج التاريخي المكون من العصور «المظلمة» وعصر «التنوير» الذي فرض على العالم رغم سياقاته المختلفة) أداة أسهمت في أن تنكر تلك المجتمعات أية دينامية داخلية تقودها للتطور.

وثمة أسطورة غير عقلانية متواشجة بالحداثة، باتت تبريرا للعنف الاستعماري ليصل إلى «مغالطة تنموية»، وتستند تلك المغالطة على رؤية أوروبا بوصفها نقطة النهاية لعملية تنموية كونية، وعلى كل الشعوب الأخرى أن تسير نحوها ولسوف تفعل[1].

ها هنا يسعنا أن نفهم الحداثة بوصفها خطابا بدلا من حقبة، فقد غدت نقطة فاصلة، تفصل المؤسسات الاجتماعية الحديثة عن تلك الأنظمة الاجتماعية التقليدية، وانبثقت أنماط اجتماعية جديدة لم تكن معروفة في المجتمعات قبل الحديثة: كالأمة - الدولة، وتعديل نمط الإنتاج وأجور العمل، والتعليم الرسمي، وعلمنة القيم والمعايير، وغلبة أنماط الحياة الأوروبية.

تلك الاختلافات هي المائزة للنمط الحديث عن النمط الماضي قبل الحديث، وكذا أسهمت في تميز أوروبا المستعِمرة عن الثقافات المستعمَرة، وعلى هذا، باتت الحداثة مغالطة يشوبها التباس مُطبق.

وقد غدت العقلانية هي قلب الحداثة النابض، العقلانية هي القلب النابض للفكر

= الحداثة، نقد مركزية المركز, الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات بعد استعماري ونسوي، تحرير أوما ناريان وساندرا هاردنج، ترجمة: يمني طريف الخولي، الجزء الثاني، ص١٠٦.

(١) المرجع السابق، ص ١٠٧.

الحداثي، حيث تم توصيفها نمطا أوروبيا في التفكير، حتى أحكمت أوروبا قبضتها على العالم عبر القرن التاسع عشر.

ها هنا باتت الحداثة مرادفة للسلوك المتحضر civilized behaviour، وكذا تبرير لمهمة التحضير civilizing mission، تلك التي تعني تهيئة بقية العالم للحضارة.

يأتي ذاك التبرير الكامن في صلب المشروع الحداثي تعبيرًا عن براديم الحداثة، حيث يقدم براديم الحداثة تبريران لكل استراتيجية يود تطبيقها وهما:

- حقوق الإنسان والمبادىء العامة.
- تحقيق حياة مبهجة آمنة للإنسان والبشر في كل مكان.

ويدنو هذان التبريران من رؤية ميشيل فوكوه، تلك الرؤية المتعالقة بناموس أخلاقي code ethics.

ويسعنا أن نلفت هنا إلى أن فرضيات الحداثة الأخلاقية (الخطابية) تلك قد أسهمت في دعم السرديات الاستعمارية، حيث ترسم تلك السرديات صورة الذوات المستعمَرة بوصفها ضحية تخلف وهمجية ثقافتها الخاصة(١).

وقد انطمرت الحداثة على تضمينات ثانوية وأسطورية تبرر الممارسة غير العقلانية للعنف، وذلك على الرغم من مثال المجتمع الخطابي فيها الذي ينبذ القهر(٢).

ويهمنا ها هنا أن ننوه إلى أن مفهوم الثنائية كان كامنا في صلب المشروع الحداثي، ذلك المفهوم الذي يشيد هوية إقصائية فيما بين طرفي الثنائية، وعلى هذا تم ترسيم ثنائية غربي/ بدائي.

الثنائية «المنطق الداخلي للهيمنة»

يتواشج منطق القهر بمفهوم الثنائية أو التعارض الثنائي، حيث يشيد ذاك المفهوم هوية إقصائية - فيما بين طرفي الثنائية - وحدود تتعارض(٣).

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.35.

(٢) ليندا لانج، القرابين المحروقة للعقلانية، ص ١١٢.

(3) Val plumwood, the environment, in A companion to feminist Philosophy, edited by: Alison M. jaguar and iris marion young, P.213.

تؤسس البُنى الاستبدادية استبدادها عبر التعارضات الثنائية، الأبيض/ غير الأبيض، العقل/ الجسد، الروح/ المادة، الثقافة/ الطبيعة، ما يسهم في ترسيخ القهر عبر افتراض صدق تلك الثنائيات وغرسها في البني المعرفية والدينية والثقافية والاجتماعية بوصفها مقدسة.

وقد واجه سبينوزا -في القرن السابع عشر - التعارض الثنائي الذي أرساه ديكارت، فيما يعرف بالثنائية الديكارتية، تلك التي تؤسس لنوعين من الجواهر يتمايزان، هما الجسد أو المادة والعقل، حيث يؤشر سبينوزا على أن العقل والمادة وجهان لجوهر واحد أساس، ليس يسعنا التعرف إلى طبيعته، وذاك لأنه مطلق مؤكدا على أن المادة والعقل يتواشجان[1].

القسمة الثنائية نمط هيراركي في التفكير، يؤسس لتفوق حدود بعينها، حيث يتفوق الطرف الأول على الثاني، ولنا أن نلمس ذاك عبر ثنائيات من قبيل العقل/ الشعور، والعقل/ الجسد، والثقافة/ الطبيعة، والرجل/ الطبيعة، وغيرها كثر[2].

وقد أسهم المنطق الثنائي ـ منطق الاستبداد ـ في ترسيخ نزعة لدى الفكر الغربي، نزعة لرؤية العالم عبر وداخل حدود التعارض الثنائي، ذاك الذي يؤسس لعلاقات الهيمنة.

حيث يفصح التمييز البسيط بين كل من المركز/ الهامش، والمستعمِر/ المستَعمر، والحواضر/ الإمبراطورية، والمتحضر/ البدائي، عن هيراركية عنيفة أنبنت عليها الهيمنة وكذا الإمبريالية ومكنتا.

وهنا نلمس أن ثم تعالق فيما بين التعارض الثنائي أو طرفي الثنائية، ففي الخطاب الإمبريالي تتغير الثنائية التابعة، ويعاد صوغها داخل النصوص عبر شكول كثر على هذا النحو:

- ❐ المستَعمِر: المستعمَر.
- ❐ أبيض: أسود.
- ❐ متحضر بدائي.
- ❐ متقدم متأخر.
- ❐ خير شرير.

(1) Don Ihde, Philosophy of Technology: An introduction, paragon house, 1998, p. 187.
(2) Ibid, p. 189.

❐ جميل قبيح.

❐ إنساني وحشي.

تبدو تلك الأبنية الثنائية هنا بوصفها تصنيفا مجحفا بين حدين، وبالوسع قراءتها على هذا النحو:

المستَعمِر الأبيض الإنسان الجميل، تُعارض المستعمَر الأسود الوحشي القبيح.

وهـا هنا تغدو الثنائية مهمة في تشـييد المعـاني الأيديولوجية على نحو عـام، وأيديولوجيا الهيمنة على نحو خاص(١).

تسـهم البنية الثنائيـةُ في صنع موائمات فيما بين الثنائيـة والإمبريالية، وذاك بدافع تحضير المستعَمر.

وثم ثنائيات أسـهمت في التأسيس للمفاهيم الحديثة المتعالقة بالعقلانية والعلم، وتلك هي ثنائيات العقل/ المادة، والطبيعة/ الثقافة، والخرافة/ المعرفة(٢).

وتلك القسـمة الأنطولوجية بين العقل وبين العالم والجسـد والتي تأسسـت عبر العقلانية الديكارتية هي بناء ثقافي تاريخي وليست حقيقة كونية، وكذا التمايز الإبستيمي/ التقني(٣).

ولنـا أن ننوه هنا إلى أنه فيما يخـص مهمة التحضـير «civilizing mission»، يغدو التعالق بـين طرفي الثنائيـة، أكثر تعقيدا عما تفترضه تلـك البنية الثنائية، حيث يسـلك الطرف الأول على نحو يحجب أولئك الخاضعين للتعارضات الثنائية، الطرف الأول يتغيا دوما حجب الطرف الثاني أوالطرف اللاحق به.

لكن القسـمة الثنائية ليسـت مدفوعة دوما بالرغبة في الهيمنة، حيث نلمس محاولة روسو (في مقالـه في أصل اللغات) توكيد حيوية ودفء اللغات الشرقية كالعربية والفارسـية، بيد أنه حـين الحديـث عن المنطق والدقة في الكتابة الغربية، إذا به - روسـو - يشرع في اسـتبعاد تلك

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.23.

(٢) دورسـيلا ك. باركـر، الثنائيات والخطـاب والتنمية، نقد مركزية المركز، الفلسـفة مـن أجل عالم متعدد الثقافات بعد اسـتعماري ونسوي، تحرير أوما ناريان وسـاندرا هاردنج، ترجمة: يمني طريف الخولي، الجزء الثاني، ص٣٨، دورسيلا ك. باركر.

(٣) المرجع السابق، ص٤٧.

اللغـات بوصفها بدائيـة، وذلك من حيث العقل والثقافة، ماأسـهم في ترسـيخ الثنائية فيما بين العلوم الغربية وبين البدائية واللا عقلانية الشرقية.

ويسـعنا أن نشير هنا إلى أن الانهمام بالثنائية كان قد بدأ للمرة الأولى مع البنيوي الفرنسي فرديناند دى سوسـير، حيث راح يلفت إلى أن بعض العلامات signs تكتسب معنى، لا لكونها تؤشر على موضوعات حقيقية، ولكن لكونها تتعارض مع علامات أخرى.

التعـارض الثنائي صوغ مفرط في الاختلاف... أبيض/ أسـود، رجل/ امرأة، ميلاد/ موت، فكل تعارض من تلك التعارضات يمثل نسقا ثنائيا، وتلك التعارضات ماثلة في البنية الثقافية.

وتكمـن المشـكلة في أن تلك الأنسـاق الثنائية تقمـع التداخل والتمازج فيـما بين الفئات المتعارضة، إذ يغدو التداخل هنا جد عسير، وذلك وفقًا للمنطق الثنائي[١].

و بالوسـع التحرك خارج تلك التعارضات الثنائية، وذلـك عبر فهم أوجه الالتقاء فيما بين الحداثة وشـكول الإدراك التقليدية غـير الحداثية (وهذا فيما يخص ثنائيـة الحداثة/ التقليد)، وثم من يقدم ثنائية العقل/ الجسد - تلك المائزة للعقلانية الديكارتية - بوصفها بنية تم تحديدها ثقافيـا، فهي جـزء لايتجزأ من رؤيـة العالم العلمية التي ترى الجسـد والعـالم الطبيعي آلات ميكانيكية تخلو من الإدراك، وليست تماثل الكائنات العضوية الحية[٢].

وقـد راحـت النظريات بعد البنيوية والنسـوية المعاصرة تلفت إلى أن الثنائيات تؤسـس لهيراركيـة عنيفة، حيـث يهيمن أحد حدود التعارض دوما، (الرجـل على المرأة)، (الأبيض على الأسود).

التعارض الثنائي نفسـه يؤسـس للهيمنة، وذلك أنه إذا كان ثم تفاعل لا يتوائم مع التعارض الثنائي يتم قمعه.

ويفصح التعارض مسـتعمِر/ مستعَمر عن ازدواجية ماثلة في الشـيزوفرنيا الثقافية، وكذا يفصـح عـن أنماط كُثر من الانشـغال بالهويـة، حيث يبث طاقـة تدعم أحد طـرفي الثنائية، كالقومية على سبيل المثال.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.24.

(٢) دورسيلا ك. باركر، الثنائيات والخطاب والتنمية، ص٤٠، ٤١.

وقد أسهمت النظرية - بعد الاستعمارية في مناهضة التعارضات الثنائية الإمبريالية تلك، حيث راحت تشق ازدواجية المنطق الامبريالي، وكذا تشق العلاقات البنيوية الماثلة في النسق الثنائي نفسه، كاشفة عن التناقضات الكامنة داخل ذاك النسق، كالتعارض مُنوِر/ مستنير/ enlightened nlightener e ذاك الذي يؤشر على ازدواجية عميقة، تمارس فعلها في تكوين العلاقات الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والتي تحط من قدر الذوات المستعمر[١].

وهكذا، نلقي النظرية بعد - الاستعمارية المعاصرة آخذة في كسر أنماط الفصل الثنائي، وعلى نحو خاص تلك المتعالقة بالاستعمارية والإمبريالية، وقد أسهم شق أنساق الثنائيات الإمبريالية في التأكيد على التأثير الجدلي التفاعلي، وذاك في مواجهة الإمبريالية.

تفترض الثنائيات الإمبريالية دوما حركة في اتجاه واحد، الحركة من المستعمِر إلى المستعمَر. بيد أن الهوية بعد الاستعمارية تنبثق داخل حيز الإز دواجية، كي تواجه الإمبريالية، ذاك أن دينامية التغيير ليست حركة في اتجاه واحد، دينامية التغيير عبر ثقافية transcultural، حركة حرة غير مقيدة، ومفعمة بتأثير تبادلي.

وها هنا لنا أن نسأل: لم لا نسلك سُبُل في الوجود لا تعرف الصدع الذي تشيده تلك التعارضات الثنائية؟ حيث يتلاشى الصدع بين الطبيعة والثقافة - على سبيل المثال - حين نلقي الأنشطة الوالدية المتعالقة بالنساء لاتنفصل عن ممارساتهن الثقافية. تلك رؤية للعالم، ليست تغلق الذات على ذاتها، بل تنغمس عبرها الذات في علاقات مع ذوات آخر وكذا مع العالم غير الإنساني، تلك طريقة في الوجود تخلو من القسمة الثنائية بين الإنساني والعالم غير الإنساني، بين غناء الإنسان وغناء الطبيعة[٢].

التنوير «فصل في تاريخ الاستبداد»

بالوسع اعتبارالتنوير مغالطة، غموض مطبق، أنه التئام البصيرة والعماء، المعرفة والجهل، الحقيقة والوهم.

يؤشر المشهد المعاصر الماثل داخل النظرية الاجتماعية، والنظرية الثقافية والنظرية السياسية، على أن التنوير الحديث قد بات مشروعًا مريبًا تثار حياله الشكوك.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p. 24.

(٢) دورسيلا ك. باركر، الثنائيات والخطاب والتنمية، ص٤٣.

فقد راح التنوير الأوروبي - عبرالقرن الثامن عشر - يؤسس لمشروع كوني، يتغيا إزاحة - على نحو وحشي - التقاليد العقلانية والأخلاقية الخاصة بالعالم غير الحديث non modern، وغرس معيار وحيد.

ها هنا، وعبر تلك الرؤية تغدو العقلانية والفردانية المصاحبة للتنوير والمائزة له، تغدو جدباء شائهة، تخلو من التأثير في الواقع الأخلاقي والعقلي والثقافي والسياسي(١).

وراحت الإبستمولوجيات التنويرية تقدم العلم الحديث بوصفه محايدا متحررا من القيم value free، بحث عن المعرفة والحقيقة منفصل ومستقل عن الواقع والقيم الاجتماعية، ما أسهم في أن يغدو العلم وكذا التكنولوجيا أداتا سحق للتقاليد المعرفية الأخرى، ومن ثم باتت العقلانية التنويرية مدمرة، العقلانية التي تنفصل عن شروط الحياة والقيم الاجتماعية تغدو مدمرة لذاتها أيضًا.

وقد أنبنت المكانة الاستثنائية للعلم الحديث على تلك الإبستمولوجيا، وكذا على نجاح التوسع الأوروبي، حيث كانت رحلات الكشوف وما تلاها من حقبة استعمارية، وكذا تطور العلم الحديث، كل منهما كان شرطا لنجاح الآخر، وراح يدعم كل منهما الآخر.

وعلى هذا، أسست الإبستمولوجيا التنويرية للهيمنة على المعرفة والبشر(٢).

وبعيدا عن الحقبة التنويرية الفريدة - حقبة الحرية والتسامح - افتتح التنوير فصلًا مستجدًا في تاريخ الهيمنة والاستبداد، ويهمنا أن نلفت هنا إلى أن ذاك التيار المناهض للتنوير قد انبنى على ائتلاف استراتيجيات نقدية وُسمت بالنظرية بعد الاستعمارية، حيث أسهمت تلك الاستراتيجيات في تفكيك النظرية الاستعمارية، وكذا نقض المشروع التنويري، وذلك لأن كل من الإمبراطورية والتنوير كانا قد تقدما معا ويدًا بيد، حيث تم تفكيك البنى التقليدية للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتعالقة بالشعوب المستعمَرة، وتشييد مفاهيم ومؤسسات تؤسس لسلطة الحداثة.

وراح المشروع التنويري يُسهم في دعم امتياز ومعيارية المفاهيم الأوروبية العقلية

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.27.

(2) Sandra harding, gender, development, and post-enlightment philosophies of science, in decentring the center, philosophy for multicultural, post colonial, and feminist, Indiana University Press, 1989,p. 250.

والعملية، وهنا يسعنا أن ننوه إلى أن ميشيل فوكوه كان أحد الفلاسفة الذين أسهموا في المشروع بعد الاستعماري المناهض للتنوير، وذاك في كتابه «المراقبة والعقاب» على نحو خاص، حيث كشف فوكوه عن أنه ثمة تعالق فيما بين المعرفة والسلطة، وثم تواشج فيما بين الممارسات الاستبدادية للمعرفة وعلاقات السلطة، ذاك كان إسهاما ملهما، حيث ساعد في تشكل نظرية تتغيا كشف زيف دعاوي التنوير الأوروبي، وبات من اليسير - استنادا إلى فوكوه - فهم الكيفية التي تم عبرها صوغ القوانين والسياسات الاقتصادية في تلك الحقبة - مع بدايات الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر - حيث انبثقت العقلانية المستجدة في أعمال مفكري التنوير، وراحت توفر تبريرًا سافرًا للممارسات الاستبدادية.

وكذا راح التنوير الفرنسي يبشر بتحول في نظرية «الأمة»، تحول من شرعية الدولة القومية والتأسيس لمفهوم المبادىء الكونية (حقوق الإنسان والمبادىء العامة)، وذلك بدلا من الجذور التاريخية، وكان الباعث على خلق تلك الرؤية الكونية نزعة ثورية عابرة للحدود، لنا أن نلمسها في تأثير فكر التنوير على دول أوروبا وامريكا في القرن الثامن عشر[1].

وقد أسهمت الحداثة في التمهيد للمشروع الفلسفي التنويري، إذ الحداثة بوصفها حقبة التفوق على الماضي، قد باتت داعمة لإحلال عقل الإنسان المستقل والعقلانية محل الإلهي والمقدس، وقد أفضى هذا إلى رفض تبجيل كل ما هو تقليدي.

ولنا أن نلفت هنا إلى أن المشروع الفلسفي التنويري - بوصفه تنظيما عقلانيا للحياة الاجتماعية اليومية - قد تواشج والتحم بافتراض سلطة الثقافة الأوروبية، وأن العلم والعقلانية هما المساران الوحيدان للوعي الحديث، وأن المؤسسات الاجتماعية الحديثة تملك خلق حياة مبهجة آمنة للإنسان وللبشر في كل مكان، عن ذلك النمط قبل - الحديث أو قبل الحداثي[2].

الكونية «سردية شوفونية»

يفترض مفهوم الكونية universalism universality وجود سمات - ليس بالوسع تجاوزها أو اختزالها - تسم الحياة والخبرة الإنسانية، وتلك السمات تتخطى الشروط الثقافية المحلية.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.35.
(2) IBID, P. 36.

حيث يقدم مفهوم الكونية رؤية مهيمنة تهيمن على العالم، تفرض قيم وخبرات وتوقعات الثقافة المهيمنة، وذلك بوصفها تصلح لكل إنسان والبشر عامة، وعلى هذا باتت الكونية حاسمة للهيمنة الإمبريالية، وذاك لأنها تفترض الإنسانية العامة common humanity.

يتعامي مفهوم الكونية عن الاختلافات الثقافية، ولذا راح يسهم في بسط الخطاب الإمبريالي لأجل تحضير الذوات المستعمَرة، وتتبدى تلك الظاهرة - على سبيل المثال - في الأدب الإنحليزي، حيث تتحدد قيمة عمل الكاتب عبر تحقيقها شرط الكونية الإنسانية. وعلى هذا، ثم تعالق فيما بين الكونية والمركزية الأوروبية[١].

وقد أسهمت سطوة هذا الخطاب في تقديم الذات الإنجليزية بوصفها كونية، ما أفضى إلى أن تغدو أداة للهيمنة السوسيوسياسية في الهند - عبر القرن التاسع عشر - وفي مستعمرات أُخر.

وثمة سمة مهمة تسم مفهوم الكونية، وتلك السمة هي السيولة، وقد أسهمت تلك السيولة في أن تمكث الهيمنة الثقافية طويلا حتى عقب الاستقلال، وكذا عبر العالم بعد الاستعماري.

ويسعنا أن نلفت هنا إلى حقيقة مهمة، وهي أن هيمنة العلم الغربي والإمبريالية تتأتي حين تأبى الإبستمية أن تكون مصاحبة للكوزمولوجيا، حين ترى الإبستمولوجيا أنها هي ذاتها كوزمولوجيا، وها هنا تتعامي عن الأنساق المعرفية الأخرى وكذا تتعامي عن التقنيات المحلية، وعلى هذا تحول دون تآلف العلم الغربي مع الأنساق المعرفية الأخرى[٢].

الكونية خطاب متحرر من الثقافة، وثم مثال يقدم الكونية بوصفها خطابا متحررا من الثقافة culture free discourse، وذاك هو الرياضيات، حيث تقدم الرياضيات حقائق كونية، وها هنا تتبدى الحتمية الثقافية المتعالقة بالخطاب الامبريالى، فنحن حين نقول: مجموع زوايا المثلث تساوى قائمتين، هنا لنا أن نساءل:

- ❐ من أين ولم غدا مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين؟
- ❐ لم ننشغل بالمثلث وخصائصه تحديدا؟

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p 75.

(٢) دورسيلا ك. باركر، الثنائيات والخطاب والتنمية، ص٤٨.

والإجابة على هاتيك التساؤلات هي أن ثم أناسا بعينهم حددوا ذلك، وأنها ينبغي أن تكون على تلك الشاكلة[١].

وها هنا يهمنا أن نلفت إلى أن الأفكار الرياضية - كغيرها من الأفكار - بناءا ت إنسا نية، وتملك تاريخًا ثقافيًّا cultural history. فثمة شكول كُثر تتعالق بالرياضيات، لكن الرياضيات الماثلة الآن تقدم بوصفها كونية، وذاك لأنها قد تأسست عبر أنماط ثقافية في التفكير كالعقلانية، والذرية، والموضوعية، وتلك الأنماط الثقافية هي المائزة للتقاليد الفلسفية في المجتمعات الأوروبية.

وثمة سمة مهمة أخرى - بل هي إحدى أهم سمات مفهوم الكونية - وتلك السمة هي أن هذا المفهوم يملك قدرة على النفاذ، ذاك النفاذ الذي تمارسه الكونية على نحو جد رهيف، حيث تنفذ داخل أكثر العقول حساسية تجاه الإختلافات الثقافية، وكذا أكثر العقول قدرة على ممارسة التحليل الجذرى، وثم مثال جلى على ذلك هو نمط الكونية التي ليس يسعها أن تفلت من قبضة العلم الغربي، وذلك بوصفه المعياروالمرجعية الحقة للمقارنات الإبستمولوجية، ودونما أن نساءل لم غدت تلك المقارنات حتمية هكذا؟[٢]

وها هنا نلفت إلى أن فلسفات العلم بعد التنويرية تقدم العلم الغربي بوصفه نسقا معرفيا محليا، العلم الغربي ليس سوى أنساق معرفية محلية كثر، التئمت معا على نحو براجماتي، وعبر طرائق ليست متناغمة على نحو ضروري[٣].

مفهوم وكارتوجرافيا cartography المركز/ الهامش

مفهوم (المركز/ الهامش) أحد أكثر المفاهيم إثارة للجدل داخل خطاب الهيمنة، حيث يفترض ذاك المفهوم التعارض الثنائي الذي يسهل عبره تقسيم العالم، فذاك التعارض الثنائي كان حاسما للهيمنة وديمومتها.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.70-71.

(2) Sandra harding, gender, development, and post-enlightment philosophies of science, in decentring the center, philosophy for multicultural, post colonial, and feminist, Indiana University Press, 1989, P.252.

(3) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.37.

لقد انبنى التأسيس التدرجي للإمبراطورية على هيراركية راسخة، كي يغدو المستعمَر «آخر» حيال الثقافات المستعمِرة، ومن ثم يغدو مفهوم الهمجي متحققا فحسب، إذا تحقق مفهوم المتحضر المتعارض معه.

وعلى هذا، تأسست جغرافيا الإختلاف، حيث تم تخطيط تلك الإختلافات (كارتوجرافيا) لتغدو تخطيطا استعاريا، لايؤشر على رسوخ جغرافي، ولكن يرسخ لسلطة الإمبريالية الأوروبية، وقد باتت أوروبا معروفة جغرافيا بوصفها المركز، وذلك ماديا وعقليا، وكل ما يقع خارج هذا المركز يعد هامشيا من حيث الثقافة والسلطة والحضارة[١].

وثم تحول طال الوعي الأوروبي بالشرق، تحول من وعي ينبنى على التأمل إلى ظاهرة إدارية واقتصاية بل وحربية، وكان التغير الجوهري تغير في نمط الإدراك الجغرافى والمكانى فيما يخص الشرق، حيث كان التعريف القديم للشرق بأنه المكان الجغرافى الذي يقع شرقى أوروبا، تعريفا سياسيا ومذهبيا وخياليا[٢].

ويهمنا أن نلفت هنا إلى أن مهمة المستعمِر كانت جذب الهامش داخل مجال تأثيرالمركز المستنير، وقد باتت تلك المهمة هي التبرير الأساس للهيمنة الاقتصادية والسياسية عبر منتصف القرن التاسع عشر على نحو خاص.

وثم من يرى أن مفهوم المركز/ الهامش يبدو مثيرا للجدل، وذاك لأنه يفترض أن محاولات تعريف نموذج المركز/ الهامش قد تم توظيفها لترسيخه بدلا من تفكيكه.

وقد راحت النقود بعد الاستعمارية توظف هذا النموذج في تعرية تلك الثنائيات، بدلا من تأكيد استقلالية الهامشيين (الهامش) وتقويض مفهوم المركز جذريا، وكذا تفكيك دعاوي الهيمنة الأوروبية بشأن تلك الوضعية الراسخة والمتمايزة عن أولئك الآخرين.

وقد أسهمت تعرية نماذج «مركز/ هوامش» المتعالقة بالثقافة في نقض دعاوى كل ثقافة تزعم أنها تملك جسدا خالصا متجانسا، حيث الثقافات كلها مشيدة تاريخيا[٣].

ويهمنا أن ننوه هنا إلى أنه قد تم توظيف الخرائط كأدوات رمزية للدعاية، ويتبدى هذا

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص٣٣٠.

(2) Bill Ashcrof, Gareth Griffths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.37.

(3) Ibid, P.38.

عبرتحليل تخطيط اطلس مركاتور، والذي يفصح عن أن تخطيط الخرائط قد بات أداة قوية لترسيخ المركزية الأوروبية، حيث غدت خطوط العرض الأوروبية مرجعية رئيسة يتكأ عليها مفهوم هيراركية العالم، وذاك لأجل تجسيد تلك الهيراركية بوصفها حقيقة جغرافية، أو تجسيد التوجهات الأوروبية نحو العالم بوصفها حقائق جغرافية.

الكارتوجرافيا الأوروبية تخلق مايؤسس الحقيقة الجغرافية المعاصرة، فقد غدا تعريف الثقافات بأنهااستوائية حيث الإعتدال هو المعيار، وكذا المسكون على نحو كثيف أو الأقل كثافة، أو غنى أو فقير، هذا التمايز تأسس عبر ممارسة الدعاية والهيمنة وقد بات راسخا[1].

تلك التقنية غدت سمة في خطاب الهيمنة الحديث، حيث تظهر كيف تسهم علوم الكارتو جرافيا في إعادة صوغ العالم عبر القرون القليلة الاخيرة.

تاريخ العلم وتأريخ العلم

History of Science & Historiography of Science

حال مقاربة مفهوم «تاريخ» سنلقى أن ثم مستويين متغايرين لمصطلح «التاريخ» :History

المستوى الأول «التاريخ» (ت١): يصف الظواهر والوقائع التي حدثت في الماضي.

المستوى الثاني «التاريخ» (ت٢): يحلل البحوث التاريخية ونتائجها. وعلى هذا، يغدو موضوع (ت٢) هو (ت١)، وذاك على غرار موضوع العلوم الطبيعية هو الطبيعة nature.

إذ المعرفة العلمية الطبيعية ليست هي الطبيعة. بل تفسير نظري لها، ومن ثم يقوم (ت٢) بتحليل (ت١) كما تقوم العلوم الطبعيية بتحليل وتفسير الطبيعة[2].

ويهمنا أن نلفت هنا إلى أن الوقائع التاريخية وأحداث الماضي ليست هي المستوى الثاني لمصطلح التاريخ، وذاك أن ت١ ليس هو الماضي، بل تفسير وتحليل نظري له، وإذا كان نفر من الفلاسفة الوضعيين الراديكاليين يرى الوجود الموضوعي للطبيعة بوصفه وهما، وأن ليس

(1) Helge Kragh An Introduction to the Historiography of Science, Cambridge University Press, 1987, P.20.

(2) Ibid.p.21.

بالوسع التمييز بين الطبيعة وبين معرفتنا بها. على تلك الشاكلة يزعم بعض المؤرخين المثاليين أن التمييز بين (ت١) و(ت٢) ليس يجوز.

تأريخ العلم Historiography of Science:

يقارب مفهوم التأريخ Historiography ت٢ أي المستوى الثاني.

وفيما يخص الممارسة التاريخية ثم معنيان للتأريخ:

- قد يعني الكتابات التاريخية المتخصصة Professional، أي التقارير التاريخية المتعالقة بأحداث الماضي، أي كتب التاريخ وكتابات المؤرخين.
- وكذا قد يعني فلسفة للتاريخ، أي رؤية فلسفية نظرية يقدمها المستوى الثاني، وها هنا يغدو التأريخ Historiography حقل ـــ شارح meta- discipline موضوعه هو ت٢، الهستروجرافي ليس تاريخا وصفيا فحسب، بل هو تحليل لـ التأريخ نفسه[1].

وثم تساؤل يتقدم ها هنا وهو هل التاريخ ترتيب كورنولوجي لـ الأحداث والوقائع فحسب؟

حين النظر لـ التاريخ على أنه دراسة الوقائع الإنسانية في الزمان وكفى، وأنه حال الشروع في ترتيب تلك الوقائع ترتيبا زمنيًا، نكون قد أرسينا أسس الرؤية التاريخية، فهذا لا يمس الخصيصة المائزة للتاريخ، وكذا لا ينسحب على الممارسة التاريخية جلها.

إذ ليست التقارير الكرنولوجية التي من قبيل (استيقظت في السادسة)، و(ذهبت إلى العمل في الثامنة) هي التاريخ، التاريخ ـــ على الحقيقة ـــ غوص داخل الماضي وليس ترتيبًا زمنيا له فحسب.

وثمة من المؤرخين من يلفت إلى أن الظاهرة التاريخية ينبغي لها أن تتصف بالفرادة في الزمان والمكان، وذاك كيما يتسني وصفها بـ (التاريخية)، الحوادث التاريخية - إذًا - حوادث فريدة في الزمان والمكان، وذلك بحكم وقوعها في الماضي. فحين نقول «ولد نيلز بوهر في كوبنهاجن عام ١٨٨٥، فتلك تعد حادثة فريدة، حيث أنه يستحيل تكرارها أو تعميمها».

(1) Ibid.p.22.

بيد أن الدعوة لأن يغدو التاريخ رصدا لحوادث فريدة في الزمان والمكان فحسب، هي دعوة جد واهية، وذاك أنها لن تقارب التاريخ في تعالقه بـ العلوم الطبيعية، حيث يتعذر الفصل الميثودلوجي هنا، وكذا يغدو من غير الممكن تأسيس الواقعة التاريخية بوصفها وجودا ثابتا في الزمان والمكان فحسب، هذا فضلًا عن أن التاريخ تعالقات وبنيات ووجهات لايسعنا اختزالها في عدد من الحوادث الفردية، ينضاف إلى ذلك أنها ليست ماكثة في الزمان والمكان. فحين القول: «الابتكارات التكنولوجية حققت نموا اقتصاديا»، و«تأثرت الفلسفة في القرن السابع عشر بـ الأفكار الإمبريقية»، فتلك عبارات تاريخية بامتياز[١].

ولنا أن ننوه هنا إلى أنه قد يكون ثم دافع لأن يغدو التاريخ رصدا لحوادث فريدة في الزمان والمكان فحسب، وتلك هي السمة المائزة للعلوم التاريخية عن كل من السوسيولوجيا، والسيكولوجيا، والاقتصاد، لكن هذا العزل و إن كان يحقق استقلالية التاريخ، إلا أنه سيفضي به إلى الجدب.

العلم:

الشطر الثاني لمصطلح «تاريخ العلم» هو العلم Science، وهو شكل خاص من شكول الممارسة الإنسانية.

وقد يغدو مهما هنا التمييز بين مستويين للعلم:

المستوى الأول: ويعني العلم (S_1) Science بوصفه جمعا للقضايا الإمبريقية والصورية المتعالقة بالطبيعة، أعني النظريات والمعطيات التي تشكل المعارف العلمية المقبولة، وكذا الإنتاج العلمي الذي يظهر في الكتب الدراسية والمقالات.

وها هنا يجب ألا نفهم (S_1) بوصفه ممارسة للعلم، ومن ثم لا يلجأ المؤرخ لهذا المستوى من العلم.

المستوى الثاني: ويعني العلم (S_2) Science بوصفه ممارسة إنسانية، وليس شرطا أن تفضى تلك الممارسة إلى معارف صادقة وموضوعية بشأن العالم الطبيعي، وهذا المستوى يتعالق بالتاريخ على نحو جد قوى[٢].

(1) Ibid.p.22.

(2) Ibid.p.22.

تساؤل كون Kuhn

كان التساؤل الذي طرحه توماس كون Kuhn حال تحليله المعمق لموضوع التطور العلمي هو:

كيف لتاريخ العلم أن يتواشج بنظرية المعرفة مسهما فيها على نحو مشروع؟

والتاريخ الذي يقصده كون هنا ليس التاريخ «الداخلي» Internlist history التقليدي أو التاريخ العقلي، التاريخ الذي يقصده كون هو التاريخ الخارجي Externalist history الذي راح يلوح في الأفق.

ذاك أنه في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، انبثقت مقاربات العلم الحديث بوصفه ظاهرة تاريخية ثقافية سياسية، ليست تختلف عن غيرها من المؤسسات والبنيات الاجتماعية، ما أسهم في حدوث ثورة داخل الدراسات الخاصة بالعلم(١).

وفيما قبل ذلك، ومع بدايات عام ١٩٣٠ أكد الفيزيائي والفيلسوف ومؤرخ العلم برنال J.D.Bernal على أن ثمة حاجة ملحاحة إلى مقاربة العلم بوصفه مؤسسة، وذلك عبر فروع السوسيولوجي والاقتصاد والفلسفة، ولذا نشأ علم العلم «Science of Science»(٢).

وكذا عارض برنال فكرة «الثقافتان» تلك التي تؤسس ثنائية فيما بين العلم والفن، فهما معا يشكلان الثقافة، وأية محاولة لفصل إحداهما عن الأخرى، إنما تعزي إلى التفتيت البرجوازي الشائه للمعرفة، حيث أسهمت البرجوازية في تفتيت المعرفة، وذلك عبر تأصيل الهيراركية داخل المعرفة، إذ تقدم الفيزياء بوصفها صارمة تنبني على التجريد وكذا الرياضيات، وتقدم البيولوجيا بوصفها ناعمة وكذا العلوم الاجتماعية، هذا فضلًا عن الثنائيات المعرفية التي من بينها ثنائية النظرية/ التطبيق، والعلم/ التكنولوجيا، والعقلي/ اليدوي(٣).

(1) Sandra Harding, is Science multicultural? Postcloniolisms, Feminisms, and Epistemologies, Indiana University Press, 1998, P.1.

(2) Rose, steven, the limits of science, in science and beyond, institute of contemporary arts, (London England 1986).p. 2.

(3) Ibid.p. 3.

وعلى هذا، لم يعد تاريخ العلم صندوق الحكايات النادرة، كلا ولم يعد تقسيم كورنولوجي أملته دراسة الإنجازات العلمية الفائتة، تلك المدونة في الكتب الكلاسيكية والحديثة فحسب، حيث تحلق الفلاسفة وعلماء الاجتماع ومنظري المعرفة وأخرون غيرهم حول الهستروجرافي، ذاك الذي يدنو من أن يكون «ثورة» في فلسفة العلم(١).

بات الهستروجرافي مسهما في تفكيك التاريخ التقليدي للعلم، وتفكيك أفق السرد الكلاسيكي أو القصة التقليدية للعلم، حدث ذاك التحول - من السرد التقليدي إلى القصة الأخرى - عبر مقاربة العلم في التاريخ science in history.

وقد استبان أن القصة التقليدية للعلم قد تشكلت عبر أبستمولوجيات المركزية الغربية وأيديولوجيات الهيمنة.

القصة التقليدية للعلم تنسجها التواريخ المعزولة Isolationist histories، والتقارير التاريخية الداعمة للمركزية الأوروبية Eurocentric historiography، حيث تتواشج داخل القصة التقليدية مفاهيم كثر كمفهوم «نفق الزمن» «Tunnel of time»، ومفهوم «النشأة المستقلة لأوروبا» «Autonomous rise of Europe»، وكذا مفهوم المعجزة الأوروبية، ومفهوم العصور المظلمة - بوصفها جزءا مظلما من تاريخ أوروبا الناصع - ومفهوم الثورة العلمية.

وقد أنبنت القصة التقليدية على التقارير التاريخية الداخلية أو التاريخ الداخلي، ذاك التاريخ الذي يفترض أن تطور العلم يتحقق عبر سمات إبستمولوجية داخلية خالصة، وتلك السمات ماثلة في المنهج التجريبي أو المنهج العلمي بعامة، وكذا معايير الموضوعية والعقلانية. تلك السمات الداخلية من شأنها وحدها أن تحقق تكامل وانسجام ووحدة العلم.

بينما تنكر التقارير التاريخية الخارجية أو التواريخ الاجتماعية للعلم أن بذور التطور العلمي والتكنولوجي تكمن فحسب في ثنايا عقول العلماء و إجراءاتهم البحثية، وهو ما كان يلوح به التاريخ الداخلي.

وكذا تؤشر التقارير الخارجية على أن السياقات الاجتماعية تنفذ على نحو عميق داخل

(1) Sandra Harding, is Science multicultural? Postcloniolisms, Feminisms, and Epistemologies, p.1.

المحتوى المعرفي، حيث تفسح القيم الاجتماعية والثقافية المجال للتعددية الثقافية وللأنساق المعرفية المحلية.

وها هنا لنا أن نلفت إلى أنه ثم تحول حدث، تحول من التقارير التاريخية الداخلية إلى التقارير التاريخية الخارجية، تحول من القصة التقليدية والتاريخ المعزول المجتزأ إلى القصة الأخرى التفاعلية والتاريخ التفاعلي العولمي.

القصة التقليدية هي قصة المركزية الأوروبية، حيث توشجت القصة التقليدية بالحداثة والتنوير وأسس مفهوم الحداثة للاستعمار وللمركزية الأوروبية.

وكان مفهوم الحداثة modernity قد اشتق من الكلمة اللاتينية modernus، لأجل التمييز بين كل من العصر المسيحي والعصر الروماني الوثني.

وتم توظيف مفهوم حديث Modern في الحقبة القروسطية لأجل التمييز بين الحقبة المعاصرة والماضي «القديم».

بيد أن الحداثة ليست تعني هنا والآن فحسب، حيث تشير الحداثة إلى شكول التنظيم الاجتماعي، تلك التي لاحت في أوروبا عبر القرن السادس عشر، وراحت تمتد إلى كل انحاء العالم مع بدايات الكشوف الأوروبية والاستعمار(١).

وعبر التنوير الفرنسي تغير مفهوم الحداثة لتغدو حقبة التفوق في تاريخ الإنسانية (حقبة استثنائية)!!

وقد إنتقل هذا الشعور بالتفوق Superiority من تفوق الحاضر على الماضي، إلى شعور بالتفوق على المجتمعات الأخرى، تلك التي لم تعايش الحداثة، وتم توظيف تفوق الثقافة الغربية بوصفها عقلانية لتغدو تبريرا للنزعة الاستعمارية(٢).

وعلى هذا، انبثقت نظرية نظام العالم World System's Theory core periphery، نظرية القلب والأطراف أو الحواضر والتابعين، حواضر هي المركز وأطراف تابعة، وذاك التواشج كامن في بنية النظام الرأسمالي وقد وسع العالم.

(1) Bill Ashcroft, Gareth Griffiths and Helen Tiffin, Post- Colonial Studies the Key Concepts, Rutledge 2000, P. 40.

(2) Ibid.41.

تقدم التقارير التاريخية الداعمة للمركزية الأوروبية العلم الحديث بوصفه ظاهرة غربية خالصة، وبوصفه مثال الكونية، وهذا التاريخ المجتزأ أسهم في خلق جهل نسقي Systematic ignorance وأسس للإمبريالية الثقافية.

وكان الطريق إلى تسويغ المركزية الغربية والإمبريالية يبدأ من تجاهل التاريخ، والتعامي عن تاريخ الحضارات والثقافات غير الأوروبية.

وكذا كان الطريق لتسويغ مفهوم العالم الثالث - وذاك وفقًا لأيديولوجيا الحضارة الغربية - يبدأ بالتعامي عن التاريخ، وها هنا يبدو العالم وكأنه منحه إلهية لأمة بعينها، كيما تتفوق على الأخريات.

ليس ثم عالم ثالث، هذا ليس حقيقيا ومناف للسياقات التاريخية.

تم تسطير تاريخ العلم عبر غمامات المركزية الغربية، وهنا ثمة حاجة ملحة إلى مقاربة تاريخ العلم دونما غمامات المركزية الأوروبية.

وحدث التحول مع ظهور مفهوم الهيستروجرافي، حيث راح مفهوم الهيستروجرافي بوصفه تحليلا للتأريخ نفسه، وكذا بوصفه نظرية أو فلسفة للتاريخ، وفرعا شارحا Meta - discipline، راح يقدم سردية بديلة أو قصة أخرى للعلم الحديث.

ولنا أن نلفت هنا إلى أنه ثمة هيستروجرافي الفلسفة Historiography of Ph.، وهي تلك المقالات والمصنفات التي تعيد قراءة النظريات الفلسفية، تلك التي قدمت في الماضي وذاك لأجل الدفاع عنها أو نقدها.

وقد تعيد تلك المقالات قراءة النصوص doxographical، لتوصيف و إجمال ما قاله الفلاسفة. وقد تكون تلك المقالات إستعادة للاحداث Retrospective Histories فحسب، وقد تسهم في تصنيف النظريات التي قدمت في الماضي داخل أنماط مختلفة، أو قد تؤشر عليها بوصفها انعكاسًا للزمان أو الوقت الذي كتبت فيه، وتلك هي التواريخ الثقافية Cultural histories، وفي الأخير قد يتبدى أن تلك النظريات قد انبثقت عبر محاولة حل مشكلات فلسفية بعينها[1].

(1) Encyclopedia of philosophy,poul Edwards The Macmillan Company and The Free Press, London, P.226.

وثم ما يدعو هنا إلى أن نلفت إلى هيستروجرافي التقليد العلمي الإسلامي، إلى محاولة ابن النديم تحليل تاريخ العلم الإسلامي، حيث حاول عبر نقد السردية الكلاسيكية أو القصة التقليدية التحرر من سطوة الأفكار المسبقة.

لقد رأي ابن النديم أن ثم سرد بديل Alternative narrative يسعه أن يفسر النصوص والوقائع التاريخية على نحو جد عميق، إذ حين يغدو بالوسع بناء سرد يسهم في فهم الدور الأساس للعلم داخل الحضارة الإسلامية، يبيت من اليسير فهم الصلة التي بين العلم الإسلامي والعلوم الأخرى في الثقافات الأخرى.

وذاك أن الفروع العلمية الإسلامية تمثل قمة جبل الجليد فحسب، وتلك القمة قد تقدم صورة منقوصة لاتسهم في توصيف جبل الجليد كله، حيث ينبغي أن تبدأ جذور السرد البديل من المصادر التاريخية ذاتها، وعلى الرغم من صعوبة العثور على مصادر تؤرخ لبدايات النشاط العلمي، قام ابن النديم بشيء قريب من هذا. وبات من أوائل المنظرين لبدايات الحقبة الإسلامية.

حاول ابن النديم في كتابه «الفهرس» تفسير التاريخ العقلي للحضارة الإسلامية، وذلك عبر تقديم مسح للإنتاج العقلي، هذا التقرير يمكن اعتباره سردا بديلا، وذاك لإنه يقدم أدوات تسهم في فهم التطورات العلمية التي ذكرها النديم والمفهرسين الذين أتوا من بعده عبر القرن الحادي عشر والثالث عشر[1].

وعلى هذا، هستروجرافي العلم هو تشريح لتاريخ العلم.

ويسعنا النظر إلى الهيستروجرافي بوصفه ثورة في فلسفة العلم، حيث قاد التحول من التاريخ الداخلي للعلم Internalist History إلى التواريخ الاجتماعية، هذا التحول التاريخي تبعه سريعا تحول معرفي، حقبة معرفية مستجدة مصاحبة لإنبثاقة التواريخ التفاعلية العولمية، تلك التي تقدم قصة أخرى مستجدة للعلم الحديث.

تنسج التواريخ التفاعلية العولمية قصة أخرى للعلم الحديث، قصة التدفق المتقاطع والتقاء الشرق والغرب، قصة العلم في التاريخ Science in history، أي العلم في سياق التاريخ

(1) George saliba, Islamic science and the making of the European renaissance, The MIT Press, Cambridge ,Massachusetts,London,England,c, Massachusetts institute of technology. 2007, p. 112.

العولمي، وليس من منظور المركزية الأوروبية، ذاك المنظور الذي هيمن على الدراسات التقليدية للعلم.

وهنا يهمنا أن نلفت إلى أن التواريخ الخارجية تفصح عن صورة مغايرة تتعالق بالماضي والحاضر والمستقبل، صورة أنصع وأقرب إلى الحقيقة، عن تلك الصورة التي أرستها تقارير نفق الزمن Tunnel of time والمركزية الأوروبية عن الأوروبيين والتقاليد العلمية والتكنولوجية الأخرى.

وكذا تفصح التواريخ الخارجية عن وقائع واجراءات لم تحظي بأدني إنهمام داخل الرؤية التقليدية القديمة، ما قد يسفر عن زعزعة الأسس التي انبنت عليها تقارير المركزية الأوروبية[١].

و إذا كانت التساؤلات التي من قبيل، أين تذهب الكواكب البلورية؟ ليس ثم إجابة لها بعد كوبرنيقوس وجاليليو، كذا بعض التساؤلات الإمبريقية الفلسفية القديمة التي انبنت عليها تقارير المركزية الأوروبية والتقارير الداخلية Internalist، لم تعد لها أية إجابة[٢].

وثم حاجة إلى أن نعيد قراءة النصوص الفلسفية الرئيسة، وكذا الميثودلوجيات والمفاهيم والأطر التصورية، ما قد يسفر عن نقد للهويات البيضاء White Identities، تلك التي تأسست على الظلم، وانبنت على تبعية الملونين[٣].

لقد غدا كل من العلم والتكنولوجيا سلطة سياسية مهمة لأجل ترسيخ الاحتكار (الرأسمالية الاحتكارية) والإمبريالية، وكذا ترسيخ العنصرية البيضاء الفردية والمؤسساتية[٤].

وعلى هذا، ثم مايدعو إلى تقويض الفكر الإمبريالي المتعالق بالعلم والطبيعة والتاريخ، وكذا الممارسات العلمية والتقنية المتنامية في الشمال والجنوب.

---

(1) Sandra Harding, is Science multicultural? Postcloniolisms, Feminisms, and Epistemologies, Indiana University Press, 1998, P.37.

(2) Ibid. p.38.

(3) Alison Bailey,Locating Traitorous Identities: Toword a View of Privilege-Cognizant White Character, in Decentring the Center, Philosophy for Multicultural, Postcolonial, and Feminist, Indiana University Press, 2000, P.284.

(4) Sam Anderson, Science,Technology and Black Liberation, in the Radicalisation of Science, the Macmillan Press, 1976, P.118.

تكشف فلسفة العلم بعد الحداثية عن أن شروط إنتاج المعارف الواقعية والعقلية تستدعي نمطا من العارفين، وكذا أنساقا معرفية مغايرة لتلك الأنساق المألوفة لدى العارفين الخانعين، أولئك الذين كافحوا لأجل التعرف على نسق معرفي واحد.

وقد انبثق داخل فلسفات العلم بعد الحداثية مفهوم التعددية الثقافية، ذاك الذي راح يتحدى كونية العلم الغربي ومركزية الثقافة الغربية، وذاك لأجل الدفاع عن الأنساق المعرفية المحلية والخصوصيات الثقافية المتعالقة بالثقافات الأخرى، وكذا لأجل خلخلة المركز والمركزية الغربية، كي تتقدم الهوامش والاطراف.

وعلى هذا، ثم حاجة إلى منظور تاريخي مستجد للعلم، هو المنظور الحضاري.

ثم حاجة إلى «منظور حضاري» civilizational perspective يسهم في تقديم رؤية بعد - تاريخية Meta historical لطبيعة العلم. هذا المنظور يُقدم العلم الغربي الحالي بوصفه «علما حضاريا» Civilizational Science، أسهمت في تأسيسه شروط اجتماعية وشروط آخر، وهو ما يستدعي التقصي والتنقيب بغية اكتشاف حضارات أخرى للعلم[1].

نسق جنس/ جنوسة Sex/ Gender system

يؤسس نسق جنس/ جنوسة Sex/ Gender system لهيمنة الرجل، حيث يمنح الرجل الحق في أن ينتج ويعيد إنتاج الشروط الجنسانية Sexuality والحياة العائلية وبني القرابة. ويسهم نسق جنس/ جنوسة في إعادة إنتاج سوسيولوجي للحياة العائلية وبني القرابة مثله مثل عملية الولادة، وذلك بوصفها إعادة إنتاج بيولوجي للأنواع.

وبالوسع القول أن نسق جنس/ جنوسة نظام أساس للحياة الاجتماعية، طوال التاريخ وعبر كل الثقافات مثله مثل العنصرية والطبقية[2].

ويتجلي نسق جنس/ جنوسة عبر شكول تتغاير بتغاير الثقافات والطبقات، وكذا يسهم

(1) Susantha Goonatilake: Toward A global Knowledge, Mining Civilzational Knowledge, Indiana University Press. 1988, P.22.

(2) Sandra Harding, Why Has the Sex /Gendre System Become Visible Only Now?, in Discovering Reality, Feminist Perspectives on Epistemology, Metaphysics, Methodology, and Philosophy of Science, D. Publishing Company,1983, p.312.

في تحديد شكول الحيوات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حيث يختلف من المجتمع الأموي إلى المجتمع الأبوي Patrilineal، ومن مجتمع ما قبل الرأسمالية إلى المجتمع الرأسمالي، من الطبقة الأرستقراطية إلى الثقافات الديمقراطية، ومن المجتمعات الغنية إلى المجتمعات الفقيرة ومن البيض إلى السود، وعلى الرغم من ذلك يملك نسق جنس/ جنوسة دينامية باطنة قابلة للاكتشاف.

يبدع نسق جنس/ جنوسة - مثله مثل العنصر والطبقة Race and Class - موائمات تحدد الممارسات الاجتماعية للحياة اليومية، وتحدد سمات المؤسسات الاجتماعية، وأنماط التفكير جُلها، وليس المؤسسات الاجتماعية الكبيرة فحسب.

يتداخل نسق جنس/ جنوسة مع متغيرات اجتماعية عضوية يسعنا تلمسها في تفاصيل فن العمارة الأهلي والعام، وفي افتراضات مشكلات الفلسفة، وفي أنماط التكنولوجيا وخيارات الثقافة، وفي الفرق بين الطبيعة والثقافة، وحتي عبر نظم الحكم.

تفصح جينات نسق جنس/ جنوسة عن ذاتها عبر تفاعلات اجتماعية كُثر، تلك التي تحدث بين الإنسان وأي جنس Sex، أو عمر، أو طبقة، أو عنصر، أو ثقافة[1].

ليس ذلك فحسب، بل بالوسع قراءة وقائع التاريخ بوصفها مفتاحا لحل ذاك النسق الملغز.

وذاك أن نسق جنس/ جنوسة هو نظام أساس لـ الحياة الاجتماعية طوال التاريخ، وعبر كل الثقافات مثله مثل العنصر والطبقة، حيث أنه متغير عضوي اجتماعي، وليس ينجم عن شروط أُخر.

وقد أسهم الكشف عن نسق جنس/ جنوسة وما ينطمر عليه عن مدى الحاجة إلى القيام بمراجعة رؤيتنا للعلم، فإذا كان هذا الاكتشاف يدعو إلى أخلاقيات وسياسات مستجدة، فإن بوسعنا أن نلفت إلى أن اكتشاف نسق جنس/ جنوسة يستدعي ثورة داخل الإبستمولوجيا[2].

وتلك دعوة إلى إبستمولوجيا مستجدة ليست مقيدة بقيود الجبر - الذاتي، تلك المتعالقة بإبستمولوجيات الواقعية والأداتية أو الماركسية.

(1) Ibid. p. 312.
(2) Ibid. p. 311.

ولنا أن ننوه هنا إلى أن نسق جنس/ جنوسة ليس يفصح عن قدرات طبيعية غير معطلة اجتماعيًا.

وها هنا لنا أن نساءل عما عساه يعني نسق جنس/ جنوسة؟

ثمة مقاربات منظمة كُثر عبر الفلسفات النسوية، حيث تلفت إلى هذا المفهوم بوصفه ماثلا عابرا للثقافات والحدود، وبالوسع تلمسه في ثنائية الطبيعة/ التاريخ Nature/ History.

ويبدو أن كل مقاربات البحوث النسوية كانت محاولة لإيضاح هذا الوجه أو ذاك من أوجه نسق جنس/ جنوسة، في بنية الحياة الاجتماعية والفكر الاجتماعي، في هذا المجتمع أو ذاك، اليوم أو فيما مضي. حيث يسعنا النظر إلى قضايا مثل «أبوي»، «كراهية النساء»، «أدوار - الجنس»، «التمييز ضد المرأة»، و(التقسيم الأولي للعمل على أساس الجنس) بوصفها كلها تجليات لنسق جنس/ جنوسة.

ولنا أن ننوه هنا إلى أن تعرية نسق جنس/ جنوسة ليست تستدعي مراجعة لعديد من النظريات الأخلاقية والسياسية فحسب، بل تستدعي في الأساس ثورة داخل الأبستمولوجيا.

ولكن لم؟

كي نقدم إجابة لنا أن نطرح تساؤلا:

لم بات نسق جنس/ جنوسة مدرك الآن فحسب؟ وما دواعي اكتشافه الآن، وفي تلك اللحظة التاريخية، أي لِم لمَ يكتشف في عام ١٧٧٦، او١٨٤٨، أو ١٩١٩؟

وألفت هنا إلى أننا لانتغيا تقديم اجابة، فما يهمنا هو تبيان لم غدا ذاك التساؤل يحوز معقولية وينطمر على مكونات إبستمولوجية مهمة، ولِمَ لم يكن بوسع الإبستمولوجيا التقليدية طرح مثل ذاك السؤال؟

ها هنا لنا أن نلفت إلى أن تأريخ العلم يفصح عن أن الاكتشافات العلمية ليست وليدة «وجدتها»، أي ليست تأتي عبر إبداع فردي، ذاك المعتقد الذي رسخه تاريخ وفلسفة العلم التقليدية ودفعنا إلى قبوله دفعا، وعلى العكس، الإبداعات ليست سوى تتابعات تدرجية منظمة ومتمهلة لـ تحول البارايديم Shift Paradigm[1].

(1) Ibid. p.314.

وتجادل الإبستمولوجيا النسوية بشأن جواز إقامة حدود فاصلة فيما بين وقائع/ قيم، وكشف/ تبرير، و إبستمولوجيا/ أنطولوجيا، وتزعم أن محتوى العلوم (ومن بينها العلوم الناضجة) يأتي انعكاسًا لإنهمام وأيديولوجيا من يبدعون العلم، وكذا تزعم الإبستمولوجيا النسوية أن ثم تداخل فيما بين الجنوسة والقيم ومحتوى ومناهج العلوم، وأن تطور حقل الهيروديناميك - المتمهل - إنما يعزى إلى كراهية الذكور له، وذلك مقارنة بامتياز مؤسس على الجنوسة حظيت به الرياضيات الخطية[١].

وقد أسهمت الإبستمولوجيا الواقعية في توجيه البحث العلمي الطبيعي والاجتماعي عبر القرون الثلاثة الأخيرة، حيث تزعم أن الشروط الاجتماعية والتاريخية تعوق القدرات الإنسانية الطبيعية وتحول دون الوصول إلى حقائق صادقة.

بيد أننا نلقى التأريخ النسوى يفسر الوقائع الماثلة داخل مسارات العلم عبر شروط من خارج العلم، وثم دليل مألوف على ذلك هو نظرية أرسطو المتعالقة بإعادة الإنتاج حيث الذكر هو الفاعل، والأنثى هي المادة المذعنة[٢].

الذكر هو الصورة والأنثى هي المادة[٣]، وذاك يعد انعكاسًا لأيديولوجيا الجنوسة، وكذا يزعم التأريخ النسوى أن كل من النظرية والممارسة العلمية ينطمران على انحياز الجنوسة، وأن العلم قد غدا أكثر إنحيازا حين أزاحت الفلسفة الميكانيكية الرؤية الكيميائية للعالم[٤].

وذاك لأنه تاريخيا: ليس بوسع الشروط الاجتماعية تطوير القدرات الإنسانية الطبيعية كي تغدو مسهمة في تقديم حقائق مكتملة غير شائهة (معتقد صادق عن الواقع) كما يزعم الأبستمولوجيون، أو معتقد صادق بشأن اضطراد الطبيعة والعلية والحتمية كما يزعم فلاسفة العلم[٥].

(1) Noretta Koertge, New Age' Philosophies of Science: Constructivism, Feminism and Postmodernism, in Philosophy of Science Today, Clarendon Press. Oxford, 2003, P. 90.

(2) Ibid, P.91.

(3) Noretta koertage, how might we put gender politics into science? In philosophy of science vol. 71, 2004, p. 869.

(4) Noretta Koertge, New Age' Philosophies of Science: Constructivism, Feminism and Postmodernism, in Philosophy of Science Today, P.91.

(5) Sandra harding, why has the sex/gendre system become visible only now?, in discovering reality, feminist perspectives on epistemology, metaphysics, methodology, and philosophy of science, D.P, 1983, p. 315.

وعلى هذا، تفترض الإبستمولوجيا الواقعية أن محاولة تقديم تقارير علمية سببية تتعالق بدور الشروط الاجتماعية في إنتاج «المعتقد الصادق» هي محاولات غير عقلانية Unintelligible، ويرى نفر من السوسيولوجيين أن رفض هذا الافتراض - تقديم تقارير سببية وتحليلات علمية تتعالق بالشروط الاجتماعية - بالوسع تبريره، فليس ثمة حاجة للقيام بتحليلات علمية وسببية للشروط الاجتماعية المتغايرة التي أسهمت في وضع نظام مركزية الشمس أو تطور الأنواع، أو نسق جنس/ جنوسة، نحن بحاجة فحسب إلى تحليل الشروط الاجتماعية التي تسهم في خلق أخطاء الفكر، والعقبات التي تكبل «القدرات الإنسانية الطبيعية»، تلك الماثلة داخل الحياة الاجتماعية قبل الوصول إلى تلك الاكتشافات العلمية.

وثم نفر من السوسيولوجيين من ينكر دور الشروط الاجتماعية في إنتاج معتقد مقبول، وذاك بزعم أنها تستنتج نتائج تتنافى مع العقل وليست صادقة، من مقدمات افتراضية تزعم أن الشروط الاجتماعية تسهم في إنتاج معتقد صادق (True Belief).

خاتمة

ليست تلك المفاهيم فحسب، ثم مفاهيم أُخر كُثر تلف الحاضر والواقع المعيش، نسوق منها مفهوم نظرية نظام العالم world s view system أو الاستعمارية الجديدة، حيث يؤشر هذا المفهوم على عجز ما يسمى باقتصاديات العالم الثالث عن تحقيق اقتصاديات حرة وهوية سياسية تحت هيمنة العولمة، وعلى هذا تمت هيكلة النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للعالم، وكذا دشنت تلك النظرية النظام الرأسمالي بوصفه النظام الاقتصادي للعالم منذ القرن السادس عشر، وها هنا ليس بالوسع الحديث عن اقتصاديات داخل حدود الدولة القومية ولا مجتمع ولا مراحل نمو، وذاك لأن كل مجتمع هوجزء من النظام الرأسمالي العالمي.

وقد أسهم النظام الرأسمالي في التأثير على السياسات القومية، والطبقات، والإثنيات والعلاقات العالمية على نحو جذري.

وعلى هذا، يسعنا أن نخلص إلى أن :

- العلم خطاب سياسي حيث تنتقل المفاهيم من داخل الحقول المعرفية لتغير الأجندة السياسية، العلم سلسلة من الخطابات السياسية، وذاك أن لغة العلم مخترقة أيديولوجيا،

تخترقها أيديولوجيات الهيمنة الكامنة في ممارسات وبناءات معرفية وحقول علمية كثر.

- يسعنا أن نؤشر على إبستمولوجيا العلم الحديث بوصفها استبدادية وحشية، راحت تؤشر على العلم الحديث بوصفه ظاهرة غربية خالصة، وكذا بوصفه مثال الكونية، حيث شيدت كونية العلم الغربي، وأسست لمركزية العلم والثقافة والذات الغربية، وعلى هذا اشترعت طمس الهويات الثقافية، وتدمير الأنساق المعرفية المحلية المائزة لثقافات أخرى كثر.
- العلم الغربي ليس سوى نسق معرفي محلي، وبالوسع النظر إلى العلم الغربي بوصفه مكونا من عدد من الأنساق المعرفية المحلية تواشجت معا لأهداف برجماتية، وليست منسجمة على نحو ضروري.
- التعامي عن الأنساق المعرفية المحلية المائزة للثقافات الأخرى يسهم في خلق جهل نسقي، وتلك ممارسة وحشية تفضي إلى اتباع نسق معرفي وحيد هو العلم الغربي.
- ثمة حاجة ملحة إلى تبني التعددية الثقافية وكذا تثمين الخصوصيات الثقافية، لأجل تصحيح المسار الحضاري البائس الماثل، وذلك عبر تحدي سلطة المعرفة الغربية والرأسمالية العلمية بوصفها أعلى مراحل الإمبريالية.
- نحن بحاجة لرؤية العلم الحديث دونما غمامات المركزية الغربية، وكذا مقاربة العلم في التاريخ، أعني في سياق التواريخ العولمية.

شروط إنتاج المعارف العلمية والعقلية تستدعي نمطا من العارفين وكذا أنساقًا معرفية مغايرة لتلك الأنساق المعرفية المألوفة لدى أولئك العارفين الخانعين، الذين كافحوا لأجل التعرف على نسق معرفي وحيد هو العلم الغربي.

ويهمنا أن نلفت هنا إلى أنه ثمة مسئولية اجتماعية لفلسفة العلم، حيث غدت فلسفة العلم تتغيا التقدم العلمي والإصلاح الاجتماعي في آن معا، تتغيا إبستمولوجيا يسعها النفاذ إلى الواقع لأهداف تحررية بمعزل عن العقلانية، وعلى هذا راحت تتحالف مع الحركات الاجتماعية لأجل المساواة، ولأجل ترسيخ مسئولية العلم المعرفية الاجتماعية.

مسـئولية العلـم معرفية/ اجتماعية، تتغيا تحقيق المسـاواة بين البشر في الحقوق السياسـية والمدنية والاجتماعية، وها هنا يغدو العلم كفاحًا لأجل العدالة الاجتماعية والإنسـانية، العلم يسـعه أن يسـهم في ذاك الكفاح، وكذا يسـعه أن يسـهم في ترسـيخ القهر والتأسيس لعلاقات اجتماعيـة هيراركية، وتسـويغ المفاهيم المخادعـة المجحفة اجتماعيا وسياسـيا، والتي تمارس فعلها في الواقع المعيش، وتسهم في تشكل أدق تفاصيل الحياة الإنسانية.

وهنا لنا أن نساءل:

إذا كانت تلك المفاهيم لاتزال ماثلة قوية، فماذا عسانا أن نفعل؟

ليس يسـعنا سـوى أن يغدو لدى كل منا التزام بالكفاح السوسيوسـياسي، التزام بمشروع إنساني يحرر الواقع من الشروط الجائرة الماثلة ومن تلك المفاهيم البائسة.

الممارسات العلمية الغربية بحاجة ــ الآن ــ لأن تمارس العلم المعرفي، وليس ثم فرق جم بين الفلسفة والعلم المعرفي. ففي التاريخ العقلي يحدث كل شيء مرتين، يبدأ بوصفه فلسفة وبعدئذ بوصفه علما معرفيـا، الوجه الأول يتوجه نحو الطبيعة وهنا تبدو الإجراءات المعرفية بوصفها سـلوك، بينما يتجه الوجه الآخر صوب العالم الإنسـاني، ويرى المعرفة بوصفها خبرة، أعني أن ترى الجسـد بوصفه بنيـة فزيائية وكذا بوصفه خبرة حية، التئـام البيولوجي والفينومنولوجي، وجـود داخلي وخارجـي وليس كيان ميكانيكى فحسـب، وذاك أن ذات المعرفة ليسـت هوية واحدة، هي ذات تُمد الجسور فيما بين العقل في العلم والخبرة الحية.

فهلا غدت الممارسات العلمية مسهمة في خلق عالم ينبنى على التعددية الثقافية والتعددية الإنسانية؟